تاغورى

لمحة في شاعر الهند

دعنا من شعرائنا وما قالوه من مديح ورثاء وهجاء، وقصائد الاحتفالات، وأشعار ترتب على البحر والقافية كأنما قد قدمت بحساب، ولننظر الآن قليلًا في شاعر الهند تاغورى، عسانا نجد فيه بعض ما يُرَفِّهُ عن النفس، ويبعث عن الأمل ويحرك فينا خاطر الاقتداء الشريف بمن يُعد الآن في مقدمة شعراء العالم بشهادة أدباء أوروبا أنفسهم.

وقبل أن أترجم للقارئ بعض مقطوعاته أقول: إنها قد ترجمت للإنجليزية نثرًا ولم تُترجم نظمًا، وليس ذلك إلا لأن النثر يؤدي المعنى أكثر مما يؤديه النظم، ولذلك آثرت الترجمة بالنثر مع علمي بوجود بعض هذه المقطوعات منظومة في العربية، ولكن نظمها لا يرضي من يتوخى الدقة ومطابقة الأصل.

قال تاغورى:

عندما انتصف الليل قال رجلٌ قد أزمع أن يشرع في حياة النسك:
«هذا هو الوقت لكي أترك بيتي وأنشد ربي، آه، مَن هذا الذي ربطني بهذا الباطل طول هذه المدة؟».
فهمس إليه الله قائلًا: «أنا» ولكن آذان الرجل كانت مسدودة
وكانت امرأته نائمة وإلى صدرها طفلها على الفراش
ثم قال الرجل: «من هذا الذي غرني وخدعني طول حياتي؟»
فقال الصوت ثانيًا: «هو الله»، ولكنه لم يسمع.

ثم صاح «الطفل» في أحلامه ولصق بصدر أمه.
وأمره الله قائلًا: «قف أيها الأحمق، ولا تترك بيتك». ولكنه لم يسمع أيضًا، فتنهد اللهُ وقال: «لم يخرج هذا العبد يجول ويطوف ليبحث عني وهو يهجرني؟

* * *

ليس ثراؤك ثراءً لا حدَّ له أيتها الأرض أيتها الأم الصبور الغبراء
فإنك تكدين لكي تملأي أفواه أبنائك، ولكن الطعام قليل
وعطية السرور التي تدخرينها لنا لم تكن قط كاملة
وهذه اللعب التي تصنعينها لأطفالك قصفة سريعة الانكسار
إنك لن تستطيعي أن ترضي أطماعنا ولكن هل لي أن أهجرك لهذا السبب؟
إن ابتسامتك المظلمة بالألم حلوة في عيني وحبك الذي لا يعرف وصالًا عزيز على قلبي
لقد أطعمتنا الحياة من صدرك ولكنك لم تطعمينا الخلود، وهذه هي العلة في أن عينيك أبدًا يقظتان
لقد مضت دهور وأنت تعملين بالألوان والأغاني، ولكن ها هي ذي سماؤك لم يتم بناؤها بعد، فإننا لا نعرف منها سوى الإيحاء الحزين
وفوق ما أحدثته من الجمال سحابة من الدموع
وها أنا ذا أصب أغاني على قلبك الأخرس، وحبي على حبك
وسأعبدك بالعمل
لقد رأيت وجهك الحنون أيتها الأرض، أيتها الأم، وإني أحب غباؤك الكامد

* * *

لقد همس إليَّ قائلًا: «حبيبتي ارفعي عينيك»
فوبختُه بحدة وقلتُ: «اذهب» ولكنه لم يتحرك
ووقف أمامي وقبض على كلتا يديَّ، فقلتُ: «اذهب عني» ولكنه لم يذهب
ثم وضع وجهه قريبًا من أذني، فنظرت إليه وقلت: «يا للعار» ولكنه لم يتحرك
ثم لمست شفتاه خدي: فارتعشت وقلت: «إنك لجسور» ولكنه لم يخجل
ثم وضع زهرة في شعري فقلت: «لا فائدة من هذا ولكنه وقف دون أن يتأثر»،
ثم نزع عقد الزهر من عنقي وأخذه ومضى، وها أنا ذا أبكي وأسأل قلبي: «لم لا يرجع إليَّ؟»

* * *

أحبك يا حبيبي فاغفر لي حبي لقد وقعت كما يقع العصفور ضل عن طريقه
وعندما ارتعش قلبي تمزق حجابه فتجرد فجلله بالحنان يا حبيبي واغفر لي حبي
وإذا لم تقدر يا حبيبي أن تحبني فاغفر لي ألمي
ولا تنظر إلي نظرة الشرير من بعيد فإني سأذهب إلى الزاوية وأجلس في الظلام
وبكلتا يدي سأخفي خجلي العاري، أديري وجهك عنك يا حبيبتي، واغفر لي ألمي،
وإذا كنت تحبيني يا حبيبتي، فاغفر لي فرحي
وعندما يحمل تيار السعادة قلبي فلا تبتسمي على استرسالي الخطر
وعندما ما أجلس على عرشي وأتحكم فيك بجوار الحب وأعاملك كما تعامل الربة من
تحابيه فتحملني كبريائي واغفري لي فرحي

* * *

لا تحتفظ بأسرار قلبك يا صديقي، بُحْ بها سرًّا إليَّ إليَّ وحدي
أنت يا من يبتسم بهذا اللطف، اهمس لي فإني أسمعك بقلبي لا بأذني
الليل عميق والمنزل صامت وأعشاش الطيور قد نسجت بالنوم
تكلم إليَّ من بين الدموع المترددة والابتسامات المتعثرة والخجل الحلو والألم الحلو
وأخبرني بأسرار قلبك

* * *

هو: إني آخذ ما ترضخ به يدك لي، ولست أسألك أكثر من ذلك
هي: أجل أجل، إني أعرفك أيها السائل المتواضع، أنت تطلب كل ما عندي
هو: أما من زهرة تستغنين عنها أضعها في قلبي؟
هي: ولكن هبني أعطيتك شوكًا؟
هو: سأتحمله
هي: أجل أجل، إني أعرفك أيها السائل المتواضع أنت تطلب كل ما عندي
هو: لو أنك ترفعين عينيك العزيزتين إلى وجهي مرة واحدة فإنك تجعلينني أشعر
بحلاوة الحياة التي لا يصل إليها الموت
هي: ولكن هبكَ وجدتَ نظرات قاسية فقط؟
هو: أحتفظُ بها في قلبي الذي تخترقه
هي: أجل أجل، إني أعرف أيها السائل المتواضع أنت تطلب كل ما عندي

وحسب القارئ هذه المقطوعات نموذجًا لشاعرية تاغورى، وأقول في الختام لبعض شعرائنا: إنهم قد يستغربون أنه ليس في دواوين تاغورى المطبوعة رثاء أو مديح، وإنه لم يتقرب بشعره لأمير أو غني أو شريف، ولم يؤجر عليها عند وضعها، وإنما هي عفو الخاطر وفيض العبقرية.